

الشيخ " العربي التبسي " والقضية الوطنية الجزائرية

قال تعالى :

" مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا " . سورة الأحزاب الآية 23

صدق الله العظيم

لمحة عن حياته :

ولد الشيخ العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات الجدري الملقب بـ "العربي التبسي " في بلدة اسطيطح ⁽¹⁾ سنة 1895 م ⁽²⁾ وسط عائلة جزائرية محافظة ، متوسطة الحال ، حيث كان والده السيد فرحات يشتغل في الفلاحة ، و يحفظ القرآن لأبناء أهل بلده . لقنه والده المبادئ الأولى للعلوم ⁽³⁾ قبل وفاته سنة 1903 م ⁽⁴⁾ ثم تتلمذ على يد الطبيب الزاوي ، انتقل بعد ذلك الى زاوية " خنقة سيدي ناجي " بجنوب شرق مدينة خنشلة بالاوراس ، حيث اكمل حفظ القرآن الكريم . و لما بلغ عامه الخامس عشر انتقل الى زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز ⁽⁵⁾ ، الواقعة في بلدة نقطة جنوب غرب تونس ف قضى فيها اربع سنوات .

و في سنة 1914 م انتسب الى جامع الزيتونة ⁽⁶⁾ ، و في رحاب الجامع الأعظم ، كما كان يطلق عليه تفتح عقله و ذهنه على افاق واسعة من الثقافة الإسلامية ، ثم شدّ الرحال الى جامع الأزهر حيث تابع دراسته العليا في الشريعة وأصول الدين فأحرز على درجة العالمية، بعد سنوات من الجد و المثابرة والتحصيل ، و كانت الفترة التي قضاها في الأزهر من ابرز الفترات المشرقة في حياته و احدى العوامل المؤثرة في تكوينه نظراً للنهضة العلمية والادبية التي كانت تعيشها مصر آنذاك بسبب كثرة العلماء و المصلحين بها و انتشار الطباعة والصحافة و النشر .

إلا أنّ كلّ ذلك لم ينس الشيخ التبسي أهله و وطنه، بل كان على اتصال دائم بوطنه ، متتبعا لأحداثه ، مدافعا عن قضاياه الى أن اكمل الحصول على الزاد المعرفي الذي سافر من اجله، فعاد الى بلده ليبدأ جهاده بالكلمة و القلم الى ان لقي ربه شهيدا سنة 1957 ⁽⁷⁾ .

جهاده :

ما ان عاد الى ارض الوطن ، من رحلة طلب العلم ، حتى وجد الجزائر تعاني من عدوين و هو ما يوضحه بقوله :

" ان ما ابتليت به هذه الأمة في عهدها الحاضر ان سلط عليها عدوين يعملان لإبادة و محوها ، عدو منها ، و عدو من غير جنسها ، فهي تقف في واجهتين ، تدافع عن كيانها ، و لا سلاح لها غير ايمانها ، و لكن أكبر بلائها ان يكون ابناؤها من أعدائها ، أمّا العدو الخارجي ، فلا سبيل له عليها ما اتحدت و تضامنت ، وكانت جبهة واحدة ، و المتآمران على الكيد للجزائر هما الاستعمار و الطرقية "

فشرع يخوض المعارك دفاعًا عن الاسلام و الوطن بكل جرأة و شجاعة ، ويمكن ان يفسر هذا الحماس الثوري لدى الشيخ العربي التبسي بما يلي :

1. تشبعه بمبادئ الإسلام الذي يدعو الى الجهاد ، و مقارعة الاعداء ، و تحرير الأوطان، و عدم الرضوخ و الاستسلام ، و في هذا يقول : " ان موقف فرنسا من الاسلام في الجزائر شاذ ، و الإسلام يدعو الى بغض الاستعمار و حمل بغضه في الصدور ، و في الحياة ، و في القبور " (8).
2. تتبعه لمنهج اخوانه من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الذين بذلوا الكثير من التضحيات للمحافظة على الجزائر ، أرضًا و شعبًا و دينًا، و في مقدمتهم قدوتهم و امامهم الشيخ المرحوم عبد الحميد بن باديس الذي يروى عنه أنه عندما اشتد وطيس الحرب العالمية الثانية ، اجتمع بثلة من انصار حركته و مؤيديه فقال : عاهدوني ، فلما اعطي العهد ، قال : " إني سأعلن الثورة على فرنسا عندما تشهر عليها ايطاليا الحرب " (9).
3. كونه كان اشد التأس عداوة للاستعمار ، حيث يروي عنه قوله : " من عاش فليعيش بعداوته لفرنسا ، و من مات فليحمل معه هذه العداوة الى القبور " (10).
4. استعدادة لنيل الشهادة دفاعًا عن الاسلام و الوطن ، و في هذا يقول عبد الله عثمانية : " ان عبان رمضان طلب من الشيخ العربي التبسي الخروج من الجزائر " فرد عليه الشيخ قائلاً : " اذا خرجنا كلنا من الجزائر فمن يبقى مع الشعب " (11) .

و يقول صالح بن القبي :

" إن بن يوسف بن خدة ، سلمه جواز سفر ، و أمره ان يذهب الى العربي التبسي الذي كان يسكن بالقصبة من أجل ان يغادر البلاد ، نظرًا للخطر الذي يحدق به ، فرفض الشيخ العربي التبسي استلام الجواز ، فارجعته الى ابن خدة " (12).

هذا الموقف يؤكد الدكتور احمد الرفاعي شرفي ¹³ فيقول :

"سمعت من الطاهر حراث ، رحمه الله ، وغيره ان الكثيرين من اصدقاء الامام (يقصد العربي التبسي) حاولوا اقناعه بالخروج من الجزائر بعد ان اصبح هدفا ضخما وواضحا لغلاة المعمرين ، فكان جوابه دائما " اذا كنا سنخرج كلنا خوفا من الموت فمن يبقى مع الشعب"¹⁴

هذه الشجاعة تجلت في العديد من المواقف من ذلك ما رواه الشيخ بلقاسم الزغداني رحمه الله، رواية عن الشيخ عبد الحميد ، رحمه الله، "انه استدعي الى مكتب مدير الشؤون الأهلية في الولاية العامة وهو في الوقت نفسه المسؤول عن الشؤون الاسلامية للحديث معه عن المطالب الاسلامية لجمعية العلماء بصفتهم رئيسا لها، واصطحب معه الامام الشيخ العربي التبسي ، وما ان شرع مدير الشؤون الأهلية في شرح وجهة النظر الفرنسية فيما ينبغي ان يقوم عليه الحل ، حتى بادر الامام الشيخ العربي دون تردد بما معناه : "انت رجل مسيحي لا يجوز لك الحديث عن ديننا ولا عن ما ينبغي ان يكون عليه وضعه الاداري" فوجم الرجل واصفر وجهه وأنهى الاجتماع قائلا : " لم يبق بيننا وبينكم مجال للحديث "

وقال الشيخ عبد الحميد ابن باديس تعقيا عن هذا الموقف للشيخ بلقاسم "ماصدقت اننا خرجنا سالمين من دار الولاية العامة"¹⁵

وكان يستشهد في كتاباته بهذا البيت .

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أيّ جنبٍ كان في الله مصري
وسائل المقاومة :

تنوعت و تعددت وسائل المقاومة لدى الشهيد العربي التبسي منها :

أ. تثقيف الشعب ، و توعيته ، و غرس قيم المقاومة في نفوس الناشئة .

ب. مقالاته الصحفية ، و محاضراته الجهادية الوطنية .

ت. رفض الاستجابة لآغراءات المستعمر ، و عدم الخوف من تهديداته .

أ. تثقيف الشعب وتوعيته :

كان قادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين⁽¹⁶⁾ يدركون أن الشعب الجاهل لا يمكنه الحصول على استقلاله من أعدائه ، كما انه عاجز عملياً عن المحافظة عليه بعد تحقيقه ، لأنه لا يستطيع ان يقدر الاستقلال حق قدره لهذا اتخذوا من المدرسة اداة رئيسية لمحاربة الاستعمار " و قد كان ابن باديس و رفقاؤه يرون ان التعليم أهم سلاح للوقوف في وجه المستعمر . لهذا نجد الشيخ العربي التبسي كرس كلّ وقته منذ عاد الى ارض الوطن سنة 1927 في تربية و تكوين الناشئة ، فكان ينظم دروساً للعامة ، و دروساً و حلقات للخاصة ، وحلقات مغلقة للمدرسين و المعلمين والموريدين⁽¹⁷⁾ ، فأنشأ مدرسة التهذيب بتبسة ، واعتنى بها ، ثم اتجه الى مدينة " سيق " بالغرب الجزائري ، حيث لقي حفاوة كبيرة

من اهلها ، ومكث بينهم لمدة سنتين فأسس أعيان تبسة لجنة خاصة ارسلوها اليه لاقناعه بالرجوع ، إلا أنه رفض طلبهم الا بموافقة اهل " سيق " و بالحاح من اللجنة وافق اهل سيق على رجوعه الى مدينة تبسة (18).

ب. مقالاته الصحفية ، ومحاضراته الجهادية :

كتب الكثير من المقالات في الصحف ، خاصة صحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، العديد منها حماسية منها :

- هذه جزائركم تحتضر أيها الجزائريون فانقذوها .
- ألا أيها النوام هبوا .
- الجزائر تصنع بك أيها الجزائري أينما كنت .
- دعوة الى تحرير الوطن و نبذ الاستعمار (19) .

و كمثل على ذلك نورد ما يلي :

سنة 1954 رحل الى البقاع المقدسة رفقة صديقه الشهيد احمد بوشمال العضو الاداري في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، و بعد العودة عُقدَ اجتماع اعيد فيه انتخاب الهيئة الادارية لجمعية العلماء يوم 23 جادى الاول 1375 هـ الموافق لـ 7 جانفي 1956 م و التي فيه الشيخ التبسي خطابًا هامًا ، و صدر بلاغ رسمي جاء فيه ما يلي :

" ... و يعلن بكل صراحة أنّ النظام الاستعماري المفروض بقوة السلاح على القطر الجزائري منذ 1830 هو المسؤول الوحيد عن كل المآسي و المصائب والويلات التي وقعت في القطر الجزائري ، و ذلك بما أحدثه فيه من ميز عنصري مخضل ، و ما سلكه فيه من سياسة التفتير و التجهيل و الحرمان من كل نعم الحياة بالنسبة للعنصر الاسلامي ، و ما حارب به الدين الاسلامي في أقدس مقدساته ، و ما أجهز على التعليم العربي القرآني في كل جهة من جهاته ... و ما تعمده من محق جنسية الأمة الجزائرية ، و محاولة ابتلاعها ، و محو كل مظهر من مظاهر سيادتها .

" و يترحم على الشهداء الأبرار الذين ذهبوا ضحية القمع الأعمى الفظيع ، ويدعو الأمة للقيام بواجبها نحو أبنائهم و عائلاتهم ، و كفالتهم كفالة يوجبها الاسلام ، و تفرضها المروءة و الشرف " (20).

رفض الاستجابة لآغراءات المستعمر ، و عدم الخوف من تهديداته .

حاول المستعمر الفرنسي جلب الشيخ التبسي لصفه ، أو على الأقل جعله يتخلى عن مهاجمته ، و تحريض الجزائريين ضده ، فاستخدم معه أسلوب التهديد و الإغراء .

أسلوب التهديد :

تمثل أسلوب التهديد في إعتقال الشيخ العربي التبسي أكثر من مرة ففي سنة 1943 إتهمته السلطات الفرنسية بالاتصال بالألمان بتونس و تلقيه السلاح منهم من اجل إثارة الجزائريين ضد فرنسا ، فقضى ستة أشهر في السجن بين تازولت و قسنطينة⁽²¹⁾.

و خلال مجازر 8 ماي 1945 عادت السلطات الاستعمارية إلى اعتقاله من جديد و هو في مدينة قسنطينة⁽²²⁾ ، كما لقي القبض على الشيخ البشير الابراهيمي رئيس الجمعية وعدد من اعضائها ، لإدراكها أنّ هؤلاء شموع الجزائر و كلمتهم مسموعة ، و بإمكانهم إثارة الشعب عليها .

فضلّ الشيخ التبسي في السجن لعدة اشهر بالجنوب الغربي للجزائر في الصحراء حتى يكون بعيداً عن الاهل و الاتباع و الانصار ، و لم يطلق سراحه إلا سنة 1946⁽²³⁾ و لم تكنف السلطات الفرنسية بسجنه ، بل أنها فرضت عليه الإقامة الجبرية بعد انتهاء مدة عقوبة في مدينة المدية⁽²⁴⁾ ، و عندما اندلعت الثورة اعلن صراحة عن دعمه المطلق لها ، وكان يحثّ الناس على الانخراط فيها اذ يقول : " انه لا يحقّ لأهـ مسلم ، دون عذر ، أن يتخلف عن الجهاد"⁽²⁵⁾ بل أنه قال " لو كنت في صحي و شبابي ما زدت يوماً واحدا في المدينة أسرع الى الجبال فأحمل السلاح ، فأقاتل مع المجاهدين⁽²⁶⁾ .

وفي افتتاحية في عدد البصائر رقم 330 قال " القضية ايها السادة ، قضية انقلاب كامل لا قضية اصلاحات جزئية ، قضية شعب يريد دولة و حكومة ديمقراطية صحيحة و دستورا يحقق سيادة الامة ، كل الامة ، لا يريد لقمة خبز تلقى لاسكات الجوع ، و حفنة من الرماد تذر في العيون "⁽²⁷⁾

أسلوب الإغراء :

ادرك الفرنسيون مكانة الشيخ العربي التبسي لدى غالبية الشعب الجزائري خاصة انه اصبح الرئيس الفعلي للجملة العلماء المسلمين الجزائريين بعد رحيل الشيخ البشير الابراهيمي واستقراره في المشرق العربي⁽²⁸⁾ ، فحاول بعض رجال الحكومة الكبار استدراجه لمقابلتهم و التفاهم معه علمهم يستطيعون الحصول منه على كلمة او تنازل ما أو استعداد للتفاوض معهم حول حلّ معين للقضية الجزائرية ، فيتخذون ذلك ذريعة للطعن في شرعية جبهة التحرير الوطني وتمثيلها للشعب الجزائري كله. لكنه كان مدركاً لدسائس العدو وأساليه ، فكان يرفض رفضاً قاطعاً أي اتصال أو حوار مع العدو الفرنسي ، من ذلك أنهم ارسلوا اليه في شهر نوفمبر 1956 مفاوضاتهم . " م . كومان " كاتب الحزب الاشتراكي المتولي الحكم فلم يفز منه بطائل ، وبلغه ان المفاوضات الوحيدة هو جبهة جيش التحرير الوطني ، او من يعينونه لكم⁽²⁹⁾ ، ثم ارسلوا اليه في شهر جانفي 1957 مبعوث جريدة " Le Monde " لومندو ليحاول أخذ حديث معه ، ينشرونه من بعد ثم يعلقون عليه كما يريدون ، فاعتذر ورفض مقابلته⁽³⁰⁾.

و حين اصطدموا بصلابة موقفه ، وتأكدوا من عدم استعداده للتنازل عن مبادئه ، وموقفه المساند لجبهة و جيش التحرير الوطني قرروا الانتقام منه بإهانتة ثم تصفيته جسدياً.

استشهاده :

في مساء يوم الخميس، و ليلة الجمعة 4أفريل 1957 اقتحم الجنود الفرنسيون بيته وانتزعوه من فراش مرضه انتزاعاً، و عومل بغلظة و فظاعة ، وأهين امام أعين ابنه الكبير ، فقد بعثوا كتيبه ، و داسوا بأقدامهم مصاحفه ، وحجزوا محفظته بما احتوته من مستندات و أموال قد تكون له أو للجمعية ، ثم اخرجوه حافي القدمين ، حاسر الرأس ، لا يكاد يستر جسده شيء واقتادوه الى مصير مجهول .

وقد حاولت السلطات الفرنسية التنصل من هذه الجريمة الشنعاء ، فزعمت أن الدين اختطفوه هم " الارهابيون " أي رجال جيش التحرير كما تسميهم ألا ان جمعية العلماء كذبت هذا التضليل ، و اعلنت للرأي العام العالمي أن فرنسا هي التي قامت بهذا الفعل الشنيع⁽³¹⁾.

و ظل مصيره مجهولاً، و قبره غير معروف الى ان اتضح مؤخراً من بعض الشهادات التي قد تكون صحيحة انه مدفون في " عين ذهب " ، ولاية تيارت⁽³²⁾.

تكريمه :

" بعد الاستقلال ، قامت الدولة الجزائرية بتكريم هذا العالم الشهيد ، فحملت المساجد والمدارس و الثانويات و الجامعات و غيرها من المعالم الوطنية اسم "العربي التبسي" كما كرمه الرئيس عبد العزيز بوتفليقة بتسمية مطار مدينة تبسة باسمه ، و قيام مؤسسته الثقافية"⁽³³⁾.

1 عبد العزيز نصيب : الرجل الذي نصر الحق بالحجة الناهضة وقارع الاستعمار في جميع مظاهره . الشروق اليومي 4/5 / 2004 ص 15 ع 1042.

2 نفسه .

3 بوجرادة محمد : في الذكرى الـ 52 لاستشهاد الشيخ العربي التبسي ، الشروق العربي الاسبوعي من 6 إلى 12 أفريل 2009 ، عدد 863 ، ص5.

4 نفسه .

5 نفسه .

6 نفسه .

7 نفسه .

8 احمد الرفاعي الشرفي ، مقالات في الدعوة الى النهضة الاسلامية في الجزائر ، ج 2 ، ط1 ، دار الشهاب ، باتنة ، 1984 ، ص 51 .

9 عبد الكريم بو الصفصاف ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقاتها بالحركات الجزائرية الاخرى ، 1931 - 1945 ، دراسات تاريخية و ايدولوجية مقارنة ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1996 ص 167 .

10 نفس المرجع ، ص 92 .

11 ندوة حول الشيخ العربي التبسي في ذكرى استشهاده 47 " ابقى مع الشعب حيًا أو ميتًا " المساء 10 / 4 / 2004 ص 15 .

12 نفس المرجع

u

13 الدكتور احمد الرفاعي شرفي هو مؤلف سلسلة كتب مقالات وراء علماء جمعية العلماء المسلمين ومن هذه الكتب كتاب الشيخ العربي التبسي "الصادر عن دار الهدى " الجزائر سنة 2011

14 نفس المرجع ص 11

15 نقلا عن الرفاعي ص 11

16 تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يوم 5 ماي 1931 بنادي الترفي بعاصمة الجزائر ، لمزيد من التفاصيل ، أنظر عبد الكريم بو الصفصاف ، مرجع سابق ص ص 101 - 109 .

17 أحمد عيساوي ، التبسي رفقة الدعوة و الهدف ، مرجع سابق .

18 ندوة حول الشيخ العربي التبسي في ذكرى استشهاده 47 ، مرجع سابق .

19 أحمد عيساوي ، منارات من شهاب البصائر للشيخ العربي بن قاسم التبسي (د . ط ، د . ت) ص 390 .

20 البصائر عدد 349 ، 29 جمادى الأولى 1375 / 13 جانفي 1956 .

21 عبد الكريم بو الصفصاف ، مرجع سابق ص 89 .

22 نفس المرجع ص 89 .

23 نفس المرجع ص 89 .

24 علي مرحوم ، من وثائق الثورة حول استشهاده العربي التبسي ، مجلة الاصاله ، عدد خاص 73 / 74 - شوال - ذو القعدة 1399 هـ سبتمبر - أكتوبر 1979 م ص 95 .

25 حسين عريبي ، الشهيد العربي التبسي ذكرى و عبرة ، أشغال الملتقى الوطني الثالث للفكر الاصلاحى في الجزائر 2000 ، ص 69 .

26 نفس المرجع ص 69 .

27 نفس المرجع ص 70 .

28 علي حشلاف ، المواقف السياسية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال صحفها 1931 -

1939 رسالة لنيل شهادة الماجيستر معهد علوم الاعلام و الاتصال ، جامعة الجزائر 1994 ، ص 91 .

29 الشيخ البشير الابراهيمي ، مجاهد من كبار العلماء ، ولد سنة 1889 بسطيف ، انتخب رئيساً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد عبد الحميد بن باديس ، و هو خطيب موفه ، توفي سنة 1965 بالجزائر

أحمد الرفاعي شرفي ، مقالات و اراء علماء جمعية العلماء المسلمين ، الشيخ العربي التبسي ، دار الهدى ، الجزائر 2011 ، ص 21 .

30 على مرحوم ، مرجع سابق ص 102 .

31 نفس المرجع .

32 نفسه ص ص 104 - 105 .

³³ العربي التبسي يكون مدفونا بـ " عين الذهب " عائلة الشهيد تتحفظ على بعض السلوكات . الخبر
الاثنين 10 سبتمبر 2001 م الموافق لـ 22 جمادى الثانية 1432 هـ .